

إشكالية الضاد والظاء في اللغة العربية (تحليل وصفي لمراحل نشأتها ونقد حلولها)

أحمد سعدون

قسم اللغة العربية وآدابها – جامعة الجزائر -2-

Abstract:

The phonetic confusion between the letters "DHAD" and "DHAA" in Arabic language, is a historical linguistic issue, raised from the ancient and had been developed according to specific phases, till it became an imposed linguistic fact. There were different attempt to limit the problematic and suggest solutions nevertheless it has been characterized by insufficiency and inaccuracy. This article details theses points and concludes them with suggested recommendations to solve the problematic.

تمهيد :

لو رجعنا إلى ما قاله سيبويه عن الضاد و حاولنا أن نعرف سر التميز الذي خصها به في تحديد المفاهيم والخصائص الصوتية لكل حرف, نجد أنفسنا أمام إشكالية تفسير ذلك التميز، فهو يقول : «إلا أن الضاد الضعيفة تتكلف من الجانب الأيمن و إن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر و هو أخف ، لأنها من حافة اللسان مطبقة, لأنك جمعت في الضاد تكلف الإطباق مع إزالته عن موضعه, و إنما جاز هذا فيها لأنك تحولها من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين و هي أخف لأنها من حافة اللسان و أنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها, فتستطيل حين تخالط حروف اللسان, فسهل تحويلها إلى الأيسر لأنها

تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن ثم تنسل من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان كما كانت كذلك في الأيمن»¹

و يقول في موضع آخر : «و لولا الإطباق لصارت الطاء دالا، و الصاد سينا، و الطاء ذالا، و لخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شيء من موضعها غيرها»²

ومن خلال هذه النقول يمكن أن نستشف مميزات الضاد، فهي عند سيبويه مستطيلة لأنها تخالط مخرج الأحرف الأخرى و فيها تكلف الإطباق مع إزالة موضعه، و تخرج من أحد جانبي الفم، إما الأيمن أو الأيسر، و إذا أزيل إطباقها لم يبق هناك صوت يمكن أن يسمى حرفا، لأنها تخرج وحدها من مخرجها و ليس معها غيرها، و هذه الصفات لها دون غيرها من الأحرف العربية. هذا التميز جعل البعض يحصر وجودها في اللغة العربية دون سواها، و يسمى اللغة العربية لغة الضاد، و يروي حديثا – أنكره العلماء - في هذا المعنى، و بلغ تميز الضاد إلى درجة اختلاف العلماء قديما وحديثا في تحديد مخرجها و صفاتها الصوتية مما جعل أدائها النطقي يتعسر على الناطقين بالعربية عربا كانوا أم عجماء، و جعلهم يخلطونها ببعض الأحرف قريبة المخرج منها، و أهم حرف شاع اشتباهه بالضاد هو حرف الطاء و الذي أصبح صوته موزعا على الحرفين دون أدنى فارق يذكر، و نحن في هذا الفصل سنتناول هذه المسألة بنوع من التجديد على المستوى المنهجي خاصة، فكما لاحظناه مما تجمع لدينا من مادة علمية تخص هذا الموضوع، فقد كانت منهجية التناول عند من تكلم في هذا الموضوع واحدة و طرق الدراسة تدور في فلك واحد، ومن جهتنا فقد حاولنا أن نحدد أصل الإشكالية وفق تصور يقوم على تقسيم مرحلي يبتدئ بصعوبة النطق بالضاد مرورا بفقدان الأداء الصوتي الصحيح لها كنتيجة حتمية لتلك الصعوبة، ثم تعويضها بمجموعة من الأحرف الأخرى قريبة المخرج منها ومتماثلة الصفات معها، انتهاء بطغيان اشتباهها بالطاء نسبة إلى باقي الأحرف، واشتباها بالطاء يقودنا إلى رد فعل العلماء و اللغويين تجاه هذه الإشكالية والذي يتمثل في محاولة إيجاد حل لها، كل حسب ما يراه مناسبا لها، فكثر التأليف في هذا الموضوع، وانطلاقا مما توفر لنا من مادة

الكتاب – سيبويه – ت، عبد السلام محمد هارون – دار الجيل، بيروت – ط1-

¹- 1991، ج4- ص432-433

²- المصدر نفسه – ج4- ص 436

علمية، استنبطنا توجهات العلماء في حل الإشكالية، وحاولنا تصنيف المؤلفات حسب الطبيعة اللغوية للدراسة، وحسب نوعية المدونة المدروسة، وحسب توجه المؤلفين في حل الإشكال وحاولنا من جهتنا أن نعقب على كل توجه بما نراه مناسباً من نقد و توجيه، لأن التوجهات السابقة كما لاحظنا كانت تمثل حلولاً جزئية للإشكالية، ولم تلمّ بكامل جوانبها وفق تصور شامل لحل نهائي.

أصل المشكلة

لعل أهم إشكال يواجه المتكلمين بالعربية على المستوى النطقي والكتابي هو عدم التمييز أو صعوبته في أحسن الأحوال بين الحرفين: الضاد و الظاء، وهذا الإشكال قديم قدم الروايات والمؤلفات الأولى في اللغة العربية حيث أورد العلماء القدامى عدة روايات وأخبار عن وقوع حالات معينة لعدم التمييز هذا، ومن ذلك ما أورده الجاحظ في البيان بقوله: «وزعم يزيد مولى عون قال: كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء فكان إذا دعاها قال يا ضمياء بالضاد فقال له ابن مقفع قل: يا ظمياء، فناداها: يا ضمياء، قال: فلما غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثاً قال: هي جاريتي أو جاريتك»¹، وكذلك نجد رواية أخرى أوردتها السيوطي في المزهر حدثت في مجلس عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فيها: «أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين أيضحي بضبي؟ قال: وما عليك لو قلت: بضبي، قال: إنها لغة (بالكسر)، قال: انقطع العتاب ولا يضحى بشيء من الوحش»². و مما سبق فإنه لو صحت الرواية المنسوبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهذا يعني وجود هذه المشكلة في عصره و لو في حالات معينة ومعزولة وإن لم تصح الرواية فيكفي أن تكون الظاهرة موجودة في عصر الجاحظ للتدليل على قدمها في تاريخ اللغة العربية. وأما فيما يخص سبب هذا الإشكال فيمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل :

البيان و التبيين- الجاحظ - ت : درويش جويدي - المكتبة العصرية - بيروت- ط -

¹ -2003 م -ج2-ص : 330

- المزهر، السيوطي، ت : محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار الجيل، بيروت، ط-د-ت-

² ج1-ص562-563

المرحلة الأولى : صعوبة النطق بالضاد :

يقول ابن الجزري في النشر: «والضاد تفرّد بالاستطالة وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإن السنة الناس فيه مختلفة وقل من يحسنه»¹ فإن كان ابن الجزري في عصره يقر بقلّة من يحسن النطق بالضاد فكيف هو الأمر في عصرنا هذا .

ونعرض لقول الجاحظ أيضا : «فأما الضاد فليست تخرج إلا من الشدق الأيمن إلا أن يكون المتكلم أعسر يسرا مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يخرج الضاد من أي شذقيه شاء، فأما الأيمن والأعسر والأضبط فليس يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه الشديد»² ، فالجاحظ يحدد نطق الضاد بجهة واحدة من جهتي الفم و يعتبر نطقه بالجهتين لا يكون إلا بالاستكراه الشديد .

و بلغ الأمر ببعض العلماء أن ألفوا رسائل في كيفية النطق بالضاد و كيفية إخراجها و قد ذكر بعضها طه محسن في مقدمة تحقيقه لرسالة : غاية المراد في معرفة إخراج الضاد، لشمس الدين بن النجار و من هذه الرسائل: المراد في كيفية النطق بالضاد، لعيسى بن عبد العزيز اللخمي الاسكندري ، و فتوى في مسألة الضاد لعلي بن محسن الصعيدي الأزهري³، و يقول شمس الدين في مقدمة رسالته : «فإني لما رأيت كثيرا من الناس المختلفين الأجناس لا يحسنون إخراج الضاد ولا يأتون في ذلك بالمراد»⁴، إلى أن يقول مستشهدا ببيت من الشعر: «و أيضا فإن الضاد أشد الحروف صعوبة على اللافظ لأنه حرف قوي صعب يعسر بيانه على كثير من الناس و لهذا قال الشيخ العلامة أبو الحسن علم الدين السخاوي رحمه الله في قصيدته المسماة : عمده المفيد و عدة المجود في معرفة التجويد:

و الضاد عال مستطيل مطبق
و أشهر من تكلم من المحدثين عن صعوبة النطق بالضاد نجد كمال بشر وإبراهيم أنيس ورمضان عبد التواب حيث يقول كمال بشر بعد تحديده

- النشر في القراءات العشر - ابن الجزري - مراجعة: علي محمد الضباع - دار الكتاب العربي - دب - ط 1 - ج 1 - ص : 219¹
- البيان و التبيين - الجاحظ - ج 1 - ص 48²
- ظ/ غاية المراد في معرفة إخراج الضاد - ابن النجار، طه حسين، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1988، مج 39، ج 2، ص 251³
- المصدر السابق - ص 261⁴
- المصدر نفسه - ص 264⁵

لصفات الضاد عند القدماء : «وبتطبيق هاتين الظاهرتين مضمومتين إلى نقطة النطق نحس بصعوبة بالغة في نطق هذه الضاد و قلما استطاع واحد منا أن يأتي بنطق مثالي يوائم ما قدمه لها العرب من خواص وسمات»¹ و يقول إبراهيم أنيس: «و يظهر أن الضاد القديمة عصية النطق على أهالي الأقطار التي فتحها العرب أو حتى على بعض القبائل في شبه الجزيرة العربية»²

و يقول رمضان عبد التواب: «و يحدثنا اللغويون عما سموه الضاد الضعيفة وهو مظهر من مظاهر عدم تمكن بعض العرب القدماء من نطق الضاد التي عرفنا وصفها من قبل»³، و مما لا شك فيه استنادا إلى هذه الأقوال أن الضاد القديمة بنطقها الصحيح كانت صعبة و عسيرة على العرب أنفسهم دون أن يقدم كل من تكلم في الأمر واطلعنا على كلامه سببا مقنعا لهذه الصعوبة باستثناء ما أورده من اجتماع صفات الجهر و الرخاوة و الإطباق و الاستعلاء إضافة إلى الاستطالة مما جعل الجمع بين هذه الصفات أمرا عسيرا⁴.

و إن كان مما لا خلاف فيه أن اللغة العربية لغة الخفة و اليسر و سهولة النطق على جميع المستويات الصوتية منها والصرفي والتركيبية، فإن هذا الأمر يجعلنا نتحفظ مما قرره من قال بصعوبة النطق بالضاد، فكيف للغة تتفرد بصفة الخفة و اليسر إلى درجة وضع قواعد محددة صوتية و صرفية و نحوية لتحقيق هذه الخفة كحروف الذلاقة في غير الثلاثي من الرباعي والخماسي، ومباحث الإدغام والإبدال و الإعلال و تقدير الحركات الإعرابية وغيرها أن تحتفظ بصوت يصعب نطقه على أهل اللغة أنفسهم وهذا في حالة إفراده فكيف به وسط مجموعة من الأحرف الأخرى قريبة المخرج أو بعيدتها عنه، كما أن الخليل وسيبويه لم يذكرا صعوبتها، و هما ممن شافه الفصحاء. و يبقى تحفظنا هذا مجرد ملاحظة وصفية لم نجد لها بديلا مقنعا أو حلا واضحا بالحجج و الأدلة، وهذا الأمر الذي أورده من صعوبة النطق بالضاد

- علم الأصوات - كمال بشر - دار غريب - القاهرة - د ط، 2000 - ص 257¹
¹ - الأصوات اللغوية - إبراهيم أنيس - إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - دب - ط
 دت - ص 46-47

- مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والطاء، رمضان عبد التواب، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1971، مج 21، ج 2، ص 220³
 ظ- النشر في القراءات العشر - ابن الجزري ج 1 - ص 205 و ص 219⁴

جعل البعض يسمون اللغة العربية بلغة الضاد¹، وبلغ الأمر ببعضهم أن يروي حديثاً مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه: «أنا أفصح من نطق الضاد»²، غير أن العلماء أثبتوا بطلان هذا الحديث، كما يقول ابن كثير عند تفسيره لسورة الفاتحة: «وأما حديث: أنا أفصح من نطق بالضاد، فلا أصل له والله اعلم»³، ويقول ابن الجزري: «والحديث المشهور على الألسنة: أنا أفصح من نطق بالضاد، لا أصل له ولا يصح»⁴.

المرحلة الثانية: فقدان الأداء الصوتي الصحيح للضاد :

إن كان علماءنا القدامى قد اعتمدوا على ملاحظة الظواهر الصوتية ووصفها في تحديد صفات الحروف ومخارجها فإن صعوبة النطق بالضاد أثر في عملية الملاحظة والوصف بطبيعة الحال، فقد وصف العلماء القدامى الضاد بأنها مجهورة رخوة مستعلية مطبقة مستطيلة⁵ و اختلفوا في تحديد مخارجها فالخليل وضعها مع الجيم و الشين في حيز واحد⁶ بينما وضعها سيبويه و ابن جني في حيز بعد حيز الجيم و الشين⁷.

وبالمقارنة مع الأداء الصوتي لحرف الضاد في عصرنا هذا و الذي يمثل أحسنه قراء القرآن الكريم، نجد انه يختلف عما وصفه القدماء، ويتجسد هذا الاختلاف كما قال كمال بشر: «و هذا الوصف الذي أوردناه للضاد يختلف عما ذكره علماء العربية لهذا الصوت في نقطتين أساسيتين أولاًهما تتعلق بموضع النطق و الثانية خاصة بكيفية مرور الهواء عند النطق»⁸

أما عبد اللطيف محمد الخطيب فقد زاد عليه نقطة اختلاف ثالثة هي اتجاه حركة الهواء أثناء النطق بالحرف⁹

--ظ/ علم الأصوات- كمال بشر- ص : 269- 270¹

--ظ/ النشر في القراءات العشر - ابن الجزري- ج1-ص 219²

- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير- دار الندى - بيروت - ط1- 1988م- ج1-ص 31³

- النشر في القراءات العشر - ابن الجزري - ج 1 ، ص 219⁴

- ظ/ النشر في القراءات العشر - ابن الجزري - ج1-ص 202- 203⁵

- ظ/ كتاب العين - الخليل -ت: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة

6 الهلال، دب، دت، ج1-ص58

-ظ/ الكتاب، سيبويه، ج4-ص433/وسر صناعة الإعراب- ابن جني، ج1-ص47⁷

--علم الأصوات - كمال بشر - ص 254⁸

- ظ/ ضاد العربية في ضوء القراءات القرآنية - عبد اللطيف محمد الخطيب - عالم

الكتب - القاهرة - ط1- 2001 - ص17- 18⁹

و بالجمع بين القولين يمكن أن نورد جدولاً لهذه الاختلافات القائمة بين الضاد القديمة كما وصفها العلماء القدامى و الضاد الحديثة التي يقرأ بها القراء.

جدول :الاختلافات بين الضاد القديمة و الحديثة

الاختلاف	الضاد القديمة	الضاد الحديثة
المخرج	❖ أول حافة اللسان و ما يليها من الأضراس	مخرج الدال باعتباراه تقخيما لها أي من طرف اللسان و أصول الثنايا
الصفة المخرجة	لثوي – حنكي (شجري)	أسناني – لثوي
كيفية حدوث الحرف	ينحرف اتجاه الهواء إلى حافتي اللسان مما يلي الأضراس و بذلك تتحقق صفة الاستطالة	يكون اتجاه حركة الهواء من فوق ظهر اللسان و لا يجري انحباسه إلا في نقطة واحدة عند المخرج
الشدة و الرخاوة	يخرج الهواء مصحوبا بحفيف ناشئ عن الاحتكاك بالمجرى الضيق فالصوت فيه رخاوة (احتكاكي)	انحباس الهواء خلف العضوين المتصلين قبل انفصالهما بشكل مفاجئ و من ثم فهو صوت شديد (انفجاري)

وانطلاقاً من هذه التباينات بين الضاد القديمة حسب وصفها و الضاد الحديثة حسب نطقها لم يبق لنا إلا أن نقول أن الصوت الذي وصفه علمائنا

القدامى على أساس أنه حرف الضاد لم يبق له أثر ولا وجود ولم يعد متداولاً في العربية، إلا عند بعض المجيدين من القراء. وإلا فإن كل من وصف الضاد من القدماء قد أخطأ في وصفها باعتبار ضاد القراء قد تناقلوها شفاها وأداء جمعا عن جمع في اتصال مستمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وإذ كان من المستبعد أن يجمع علماؤنا القدامى - وهم من هم في حرصهم ودقتهم وتقصيلهم وتحريهم - على الخطأ في وصف حرف الضاد فلم يبق لنا إلا أن نرجح فرضية اندثار الأداء الصوتي الصحيح لحرف الضاد كما وصفه القدامى، والسؤال الذي يواجهنا بعد هذا الأمر هو ما هو البديل الذي حل مكان الضاد في النظام الصوتي العربي؟

والجواب هو أن الضاد حافظت على مكانها في النظام الصوتي نظريا أي على المستوى المجرد ولكنها أهملت من الاستعمال وحل محلها مجموعة من الأحرف كل حسب الجهة أو الناحية التي ينطق بها أهلها حرف الضاد شبيها به، فنجد ابن الجزري يقول في هذا السياق: « فمنهم من يخرج ظاء ومنهم من يمزجه بالذال ومنهم من يجعله لاما مفخما ومنهم من يشمه الزاي»¹، ويقول شمس الدين: « وبعضهم يخرجها كاللام المفخمة»² ويقول: «وبعضهم يخرجها ممزوجة بالذال أو بالطاء المهملة»³

ويظهر من هذه الأقوال التي اقتصرنا بها عن الأقوال الأخرى لأنها تكرر لا جديد فيه أن الضاد تنطق بشبهة بستة أحرف وهي: الطاء والذال واللام والزاي والذال والطاء، وهذه الأحرف جميعها ذات مخارج قريبة من مخرج الضاد المذكور عند القدماء مما يجعل انتقال الناطق بالضاد إلى النطق بأحد هذه الأحرف أمرا ممكنا غير مستبعد خاصة في ظل خاصية التخفيف التي تخضع لها اللغات على المستوى النطقي خصوصا.

المرحلة الثالثة : اشتباه الضاد بالطاء:

-النشر في القراءات العشر - ابن الجزري - ج1-ص 219¹

-غاية المراد في معرفة إخراج الضاد - شمس الدين بن النجار - ص 261²

-المصدر السابق-ص 263³

تكلّمنا سابقا عن الأحرف التي انقلب إليها نطق العرب بعد استصعابهم و استثقالهم لنطق الضاد ولكن الحرف الأكثر اشتباها به والذي طغى انقلاب الضاد إليه على باقي الأحرف هو حرف الظاء، وما مصطلح "الفرق بين الضاد والطاء" والذي ظهر مبكرا في عصور متقدمة للدراسات اللغوية العربية إلا دليل واضح على ما قلناه إضافة إلى كثرة التأليف التي صنفت في هذا المجال، ولم نجد فيما تمكنا من جمعه من هذه المؤلفات إلا كتباً ثلاثة تتكلم عن حروف أخرى والفرق بينها، منها كتاب "الفرق بين الأحرف الخمسة الظاء والضاد والذال والسين والصاد" لابن السيد البطلوسي.¹

أما لماذا كانت الظاء أكثر اشتباها بالضاد من باقي الأحرف التي تنقلب إليها الضاد، فذلك لأن الظاء اشتركت مع الضاد في كامل الصفات وتقاربت معها في المخرج وتفردت الضاد بالاستطالة، يقول ابن الجزري: «والضاد والطاء اشتركا صفة جهرا ورخاوة واستعلاء وإطباقا وافترقا مخرجا»²، ويقول: «والضاد تفرّد بالاستطالة»³، إضافة إلى تشابه الصورة الخطية لهذين الحرفين حيث لا يفرق بينهما إلا لسان الظاء أو العصا المشالة كما تسمى، يقول عبد اللطيف محمد الخطيب: «ويبدو أن التباس الحرفين في النطق اقترن بتشابههما في الخط»⁴، ويقول في موضع آخر: «والضاد والطاء في الخط المسند صورتها متقاربة فهما على ما يأتي:

الضاد الطاء

و الفرق بينهما هو رأس الظاء البارزة وهي ما يشير إلى الفرق في النطق بين الحرفين»⁵

ظ/مشكلة الضاد العربية و تراث الضاد و الظاء – رمضان عبد التواب – ص 228--

¹ 229

-النشر في القراءات العشر-ابن الجزري -ج1-ص 214²

-المصدر نفسه -ج1-ص 219-³

-ضاد العربية في ضوء القراءات القرآنية- عبد اللطيف محمد الخطيب-ص 214⁴

⁵ -المرجع نفسه-الصفحة نفسها

و هذا الاشتباه الشديد و الطاعي سجلته لنا الكتب القديمة متمثلا في حالات و وقائع عديدة حدث فيها خلط بين الحرفين خاصة، دون أن يكون لباقي الأحرف حظا من الروايات كما هو الحال بالنسبة لما جمعناه منها.

ولا بأس أن نورد بعضا من هذه الروايات للتدليل والاستئناس، إضافة إلى الروايتين اللتين أوردناهما في بداية المبحث فيما يخص قصة صاحب الجارية وابن المقفع عند الجاحظ، وقصة الأعرابي مع عمر رضي الله عنه عند السيوطي.

فيقول ابن جني: «أما قول الشاعر :

إلى الله أشكو من خليل أوده
لي غائض

فقالوا : أراد غائض فأبدل الظاء ضادا ويجوز عندي أن يكون غائض غير بدل ولكنه من غاضه أي نقصه فيكون معناه انه ينتقصني ويتهضمني»¹

وذكر السيوطي في الأشباه و النظائر قصة أخرى في هذا الموضوع عن مراسلة شعرية بين الوزير المصحفي والزبيدي اللغوي حيث صحح الزبيدي للمصحفي كلمة فاض بالضاد بدلا من الظاء التي أخطأ فيها والقصة طويلة يرجع إلى مظانها للتوسع والاستزادة²

وبعد هذه الشواهد نستخلص من كل ما سبق أنه قد تحصل لدينا ثلاثة أصوات من المفترض أنها الضاد، فالصوت الأول مجرد نمتلك وصفه ولا نمتلك نطقه فلا يفي بالغرض، والصوت الثاني وهو ما نجده عند القراء من دال مفخمة انفجارية تخالف وصف الضاد القديم، والثالث وهو صوت الظاء الذي يخلطه الكثيرون بالضاد وبين هذا وذاك و ذلك ضاع الصوت الحقيقي للضاد، والتبس في آخر الأمر بالظاء حيث أصبح أغلب العرب ومن تعلم لغتهم ينطقونه كذلك باستثناء قلة قليلة من أهل مصر والشام وقراء القرآن الكريم

-سر صناعة الاعراب -ابن جني- ت:حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط3، 1993، ج1- ص215-¹

- أنظر: الأشباه و النظائر في النحو-السيوطي- دار الكتب العلمية-بيروت-د-د-ت-مج2- ج3-ص163- 164²

فينطقونه دالا مفخمة انفجارية، وهناك من القراء من يحاول النطق بها كما وصفها الأولون.

الحلول المقترحة للمشكلة :

حاول العلماء منذ ظهور المشكلة أن يجدوا لها حلا وذلك من باب اضطلاعهم بمسؤولياتهم وحملهم لرسالة الحفاظ على اللغة ومنها على الدين، ولكن محاولات العلماء كانت تصب في جوانب مختلفة كل حسب ما يراه مناسباً لحل المشكلة، وبذلك تحصل لنا بعد إحصاء المؤلفات وطبيعة دراستها للمشكلة خمسة توجهات سلكها المؤلفون في سبيل إيجاد الحل :

تحديد التوجهات ونقدها :

أ- معرفة إخراج الضاد :

اعتمد بعض المؤلفين في المشكلة على تحقيق إخراج حرف الضاد ونطقه نطقاً صحيحاً كما نطقه القدامى الفصحاء وكما وصفه العلماء وذلك انطلاقاً من اعتقادهم أن عدم المعرفة بصفات ومخرج وكيفية إخراج الضاد هو السبب في اشتباهها بالطاء ومن هذه المؤلفات :

- غاية المراد في معرفة إخراج الضاد لشمس الدين بن النجار
- المراد في كيفية النطق بالضاد لعيسى بن عبد العزيز اللخمي
الاسكندري

- فتوى في مسألة الضاد لعلّي بن محسن الصعيدي الأزهري

نقد التوجه :

لا أظن أن هذا التوجه كان يمثل الحل الصائب والمثالي للمشكلة وذلك لانعدام الأداء التطبيقي للوصف النظري الذي حاول أن يأتي به هؤلاء في مؤلفاتهم، وما يحسب لأصحاب هذا التوجه وفي صالحهم، أنهم اتجهوا مباشرة الى أصل المشكلة وحاولوا الانطلاق منه للوصول إلى الحل، غير أن إشكالية الفرق بين الأداء النطقي المفقود والوصف النظري الموروث أبقي الأمور على حالها ولم تأت هذه المؤلفات بالنتائج المرجوة من تأليفها.

ب- حصر الظاءات :

توجهت مجموعة أخرى من العلماء الى فكرة حصر الظاءات العربية انطلاقا من أن حفظها واستيعابها في الذاكرة يجعل حافظها بعيدا عن اللبس والخلط بين الحرفين، وأشهر من فعل ذلك: الحريري في مقامته الحلبية المشهورة و التي أورد فيها منظومة ادعى أنه جمع فيها واستقصى بها كل الجذور الطائفة في اللغة العربية¹

نقد التوجه :

يظهر لنا أن هذا التوجه كان أكثر حظا من سابقه، لأنه ابتعد عن أصل المشكلة والذي أصبح أمر معالجته أمرا شبه مستحيل لما أوردناه في معرض نقدنا له، فكان العلاج لنتائج المشكلة، أي أنهم سلموا باشتباه الضاد والطاء واقعا ولو أقرروا اختلافهما نظريا، فكان الأنسب أن يقوموا بحصر الظاءات العربية لأنها أقل ورودا من الضادات.

ولكن رغم محاولتهم فالظاهر أنها أمر مستصعب وبعيد كل البعد عن الحلول الواقعية الممكنة والتي تكون في متناول جميع الناطقين بالعربية، وذلك لأنه من غير المعقول أن يولد الإنسان العربي وفي انتظاره قائمة من الألفاظ والجذور الطائفة التي يجب عليه حفظها حتى لا يخلط بينها وبين الضاد في الكتابة فقط لأن النطق بالحرفين صوتا واحدا أصبح أمرا واقعا ومفروضا.

ج- حصر الظاءات و الضادات :

والترم فيه أصحابه أن يحصروا جميع الكلمات التي تكتب بالضاد والأخرى التي تكتب بالطاء في اللغة العربية وهذا ما فعله أحمد عزت في كتابه : فصل القضاء في الفرق بين الضاد و الطاء²

نقد التوجه :

وهذا توجه أصعب من سابقه ولا يعتبر حلا واقعا في المتناول، فإن كان حفظ الظاءات- وما أقلها – صعبا وعسيرا، فما بالنا بحفظ الضادات أيضا وما أكثرها مقارنة بسابقتها.

د- تحديد الفروق بين الكلمات الضادية والطائية :

—أنظر: المقامات —أبو القاسم الحريري- المؤسسة الوطنية للفنون الطبيعية —الجزائر- دط-

1989م- ج2- ص312- 313

ظ- فصل القضاء في الفرق بين الضاد و الطاء- احمد عزت- مطبعة الشايندر- بغداد- -

دط- 1325 هـ²

وفيها يحدد المؤلف الضوابط الصوتية التي يكون فيها الحرف ظاء أو ضادا، كأن يقول أن كل ما فيه ثاء فالحرف المشتبه ضاد، لأن الظاء لا تجتمع مع الثاء، وممن ألف في ذلك ابن مالك والذي أورد السيوطي نصا منقولاً عنه في هذه القضية يقول فيها : «تتعين الظاء بافتتاح ما هي فيه بدال لا حاء معها وبكونها مع شين لا تليها إلا : شمضه : ملك قلبه، أو بعد لام لازمة دون هاء ولا عين مخففة ليس معها ميم إلا : لضم : ضخم، ولضلض : نهر في الدلالة، أو بعد كاف لم تتصل براء لغير ذم ولا لزوم أو بعد جيم لا تليها راء ولا هاء ولا ياء»¹

نقد التوجه :

لم تنسم المؤلفات في هذا المضمار بالدقة الكافية و حصر النتائج ضمن ضوابط قليلة و سهولة الحفظ حيث يحتاج المرء لحفظ الكتاب عن ظهر قلب ليتمكن من الإلمام بضوابطه التي قد تكون اجتهدانية في بعض الأحيان، و لا ترقى الى صفة الضابط العلمي الدقيق.

هـ حصر نظائر الضاد و الظاء :

و فيه يتم تحديد و حصر الكلمات التي تكتب بالحرفين و تختلف في المعنى مثل : الغيظ و الغيظ ، و ألف في هذا المضمار الكثير من العلماء منهم:

- ابن مالك في مؤلفه : الاعتماد في نظائر الظاء و الضاد .
- أبو الحسن بن أبي الفرج القيسي الصقلي في مؤلفه : كتاب في معرفة الضاد و الظاء .
- سعد بن علي بن محمد الزرنجاني في مؤلفه : كتاب معرفة ما يكتب بالضاد و الظاء .

نقد التوجه:

قد يكون هذا التوجه سدا للثغرة التي يتركها توجه حصر الظاءات رغم صعوبته ، فمن تمكن من حصر الظاءات سيواجه مشكلة أخرى و هي الكلمات التي تكتب بالحرفين الضاد و الظاء و هل يكتبها دائماً بالظاء أم الضاد ، و متى يكتبها بهذا الحرف أو ذاك و رغم هذه الثغرة التي سدها هذا التوجه إلا أنه لا يمثل الحل الأنسب و لا يقدم طريقة واضحة للتخلص من المشكلة ، فالمشكلة ليست في الكلمات التي تكتب بالضاد و الظاء ، بل المشكلة في اشتباه الحرفين نطقاً مما يجعل أي صوت ينطق سواء كان ظاء أو ضادا يحتمل

-المزهر – السيوطي- ج2-ص 282¹ -

الكتابة بصورتين ظاء أو ضادا فان كان ما ينطقه ظاء احتمل صورتين في الكتابة و إن كان ضادا احتمل صورتين أيضا و من لا يعرف أطاء أم ضادا يجد نفسه أمام أربعة احتمالات فلو نطق بالكلمة : غاض.

فقد يكون الحرف الذي نطقه ضادا ويكتبه ضادا وهذا هو الصحيح. وقد يكون الحرف الذي نطقه ضادا ويكتبه ظاء وهذا خطأ وقد يكون الحرف الذي نطقه ضادا ويكتبه ظاء وهذا خطأ

ظاء ويكتبه ظاء وهذا هو الصحيح. وقد يكون الحرف الذي نطقه ظاء ويكتبه ضادا وهذا خطأ. ولهذا كان هذا التوجه يقدم حلا جزئيا لنظائر الضاد والطاء دون الإلمام بأصول المشكلة وأبعادها كلها .

تعقيب و توصية : (ضوابط التمييز بين الضاد و الطاء):

يجب أن يكون طرحنا لهذه القضية طرحا واقعيا، حيث ننطلق من الاستعمال الواقعي للغة مبتعدين بذلك عن الجانب النظري الافتراضي لها، وأقصد بهذا التمهيد أن الألفاظ الحوشية والغريبة والتي لم تستعمل إلا في العصر الجاهلي وبصورة نادرة، يمكننا طرحها والاستغناء عنها في معرض الحديث عن ضوابط التمييز بين الضاد والطاء، وبصورة خاصة الكلمات الرباعية والخماسية التي دخل الحرفان في تشكيلها، وهي ألفاظ هجرت منذ زمن بعيد حيث لا نكاد نجد لها أثرا في الاستعمال اللغوي منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا سواء على مستوى التوظيف الأدبي أم العلمي للغة، ولا نكاد نعثر عليها إلا في بطون المعاجم القديمة.

وبعد هذا يمكن أن نصنف الضوابط التمييزية إلى ثلاثة أصناف استنادا إلى المستويات اللغوية التي يمكن من خلالها استنباط هذه الضوابط، وهذه الأصناف هي :

- الضوابط الصوتية
- الضوابط الصرفية
- الضوابط الدلالية

أما عن عملية استنباط هذه الضوابط فتمر بعدة مراحل هي كالتالي حسب تصورنا :

- 1- حصر كل الألفاظ العربية التي دخل في تشكيلها الحرفان اعتمادا على أهم المعاجم العربية التي تتسم بالشمول والاستغراق لجل الألفاظ العربية سواء المستعمل منها أو المهجور.
- 2- طرح الألفاظ المهجورة والتي لم يعد لها أدنى استعمال يذكر.
- 3- حصر وتصنيف المدونة المستخرجة حسب المستوى اللغوي المدروسة فيه، فيكون التصنيف الصوتي اعتمادا على قوانين التجاور الصوتي وضوابط الملائمة والتناغم الموسيقي، ويكون التصنيف الصرفي اعتمادا على الموازين والصيغ والقوانين الصرفية، ويكون التصنيف الدلالي اعتمادا على الحقول الدلالية والقيم التعبيرية للحرف.
- 4- استخراج الضوابط الممكن استنتاجها واستنباطها من عمليات التصنيف السالفة الذكر .
- 5- محاولة اختزال وجمع الضوابط الفرعية في ضوابط أكثر شمولاً وخاصة إذا كان هناك تداخل بين المستويات المذكورة سلفاً.
- 6- وأخيراً، وليس آخراً يجب أن يتبع هذا العمل المهم بعمل أهم وهو إرجاع الاعتبار للنطق الصحيح لحرف الضاد ومحاولة ترسيم وتعميم وفرض هذا النطق على المستويات التربوية والتعليمية بمختلف أطوارها، حيث يكون عمل هذه الضوابط مؤقتاً فقط، حتى إذا استعادت الضاد نطقها الصحيح ومكانتها المتميزة بين الحروف العربية، لم يعد إلى الضوابط بنا حاجة، وهذا ما أخطأ فيه السابقون بتكريسهم لإشكالية عدم التمييز بين الضاد والظاء عن طريق وضع الضوابط والحلول لهذه الإشكالية على أساس أنها إشكالية خالدة، مما يجعل الضوابط مطلوبة والحاجة إليها ملحة.